



التي جاهد لها

وإن المدالة الإلهية تقتص لهذا الوطن البائس ، ولأبنائه
الفلاحين الفقراء المرأة ولجنوده المظلومين من الطواغيت المستبدة
التي أخذت عليه مسالك الحرية والأمن والصمود إلى مصاف الدول
القوية والشعوب المستنيرة . وغير خفي أن أحمد عرابي هب يطالب
بمحموق الوطن وأبنائه، في عهد الخديو توفيق ، الذي كان يمثل العقليّة
التركيّة القنطرة بكل غرورها النبي وزهوها الخيول . وكانت الجامعة أن
يطرد ابن الوطن اليار من بلاده ، ويبقى الدخلاء الترفون ،
يستمتعون بالخيرات والنعم التي يلتمسونها من أفواه الساكنين . ثم
على تماقب الأيام ، قام بطل جديد ينادى بحق الشعب مرة أخرى
وكانت النتيجة ، أو بعض النتيجة ، أن ثبت الحق على يد أربابه
وفي قلوب المؤمنين به ، وطرد العشوم الذي أساء إلى نفسه وأبعد
في التشكيل بها ، وراح ينسل بنفسية الآبى وشذوذ التغطرس
وإن عمة وجوه شبه بين الثورتين ، ثورة أحمد عرابي ، وثورة
محمد نجيب . من وجوه الشبه هذه المطالبة بمحموق الشعب . ومنها
أن الثورة وجهت أول ماوجهت إلى الجالس على العرش الذي يمثل
الظلم الصارخ والكبرياء الحخير . ومنها أن قائد الثورتين من
أبناء القرى . ومنها الاعتماد على المنصر الديني والإجابة إلى الله .
ومنها أن القاعين بها من رجال الجيش . وغير ذلك من العوامل
السياسية الأخرى التي تكاد تكون واحدة في مفرها على عهد
الثورتين ككتيها

و حرب فلسطين ليست بميدة عنا بآثارها ونتائجها . ولملك
سمعت ما قيل حولها من خيانة واثمار بالجيش ، ومحاربة للشجمان
المخلصين من أبنائه ، وتقريب للذين كانوا سبب الهزيمة وعوامل
الأنحدار ، مع جهلهم أو فسادهم أو خيانتهم ، وهذا يشبه ما حدث
في عهد إسماعيل . وهو قريب مما حدث على عهد توفيق أيضا
« ولامراء في أن إسماعيل كان يميز الضباط والرؤساء الشراكية
والترك على الوطنيين في العامسة ، رغم ما بدا منهم من العجز
والجهل وعدم الكفاية ، مما ظهر آثره جليا في الهزائم التي حاقت
بالجيش سنة ١٨٧٥ - ١٨٧٦ في حرب الحبشة . وعلى ما كان
لهذه الهزائم من أسوأ الأثر ، فإن إسماعيل لم يحاسب أولئك القواد
والضباط على ما وقع منهم من الإهمال والتقصير ، وقيل إنه اعتم

الزعيم أحمد عرابي

الأستاذ عبد الرحمن الرفاعي

للأستاذ محمود عبد المنعم محرم

الأستاذ عبد الرحمن الرفاعي هو مؤرخ التاريخ المصري الحديث،
وكتبه التي أخرجها هي في دقتها وصدقها مثال رائع لما يجب أن
يقوم به المؤرخ النصف . وكتابه الذي بين يدي الآن « الزعيم
أحمد عرابي » انتهى الأستاذ الرفاعي من كتابته في يناير مفتتح
هذا العام . وكان مقدراً لهذا الكتاب أن يرى النور في مارس من
العام الحالي ، غير أن الطغيان والظلم جالادون ذلك ، فبقى الكتاب
حبسا حتى خلى سبيله أخيرا يحمل الدعوة إلى التضحية والدعوة
الإصلاحية إلى أبناء الوطن

ومن تصاريف القدر أن الزعيم أحمد عرابي ظم ظلما متواترا
أثناء حياته وبعد مماته . وهذا الذي وقع لسيرته الرافعية ما هو
إلا حلقة من سلسلة الاضطهادات المادية والمعنوية التي أصيب بها
بطلنا الكبير . ولئن كان الأولون الذين ظلموه قد اتخذوا باطن
الثرى مضاجع لهم ، فإن هؤلاء الذين وقع ظلمهم عليه الآن ، قد
خرجوا من البيار يجربون الآفاق طريدي المدالة والحريّة والإنصاف ،
وراحوا مشيمين بما فعلوا من سوء وما قدموا من بني وخذلان
وأحمد عرابي زعيم فلاح نشأ في القرية ، ودرس في الأزهر
فترة وجيزة . وكتب عليه أن يترقى في مناصب الجندية من أبسطها
إلى أعلاها حتى كان زعيم مصر في عهد من أحلك المهود التي
مرت ببلادنا العزيزة . وكانت نهاية هذا البطل المخلص ، أن
اقتلت ضده قوى الاستخذاء والاستعمار والأناية والعلنيان ،
وحاربتة في ميدانه الوطني ، وأخرجته من وطنه الحبيب وبلاده

في عهد توفيق ، فإنهم قد أودوا في كلا المهدين ، وناهبهم رزه شديد وتجن بالبحر ، لا لشيء إلا لأنهم يخلصون لوطنهم ويمسكون لإخوانهم أبناء الشعب ، فكان جزاؤهم الإقصاء والحرمان ، وتقديم العملاء ، والأسهار والمحاسيب والرتشين ، وبذلك تتمثل مصالح العامة ، ولا يتقدم إلا كل خب مخادع مستغل ، لا يخدم وطنه ، وإن كان على استعداد لأن يتمرغ تحت أقدام سادته وأولياء أمره ، الذين لا يختلفون عنه في أنانيته واستغلاله ونكوصه عن قواعد الشرف والروءة . وقد أرغم الخديو توفيق محمود سامي البارودي على تقديم استقالته من وزارة الحربية لشايعة العرابيين ولأسباب أخرى ، وعين صهره داود باشا يكن بدله ، ثم أعقب ذلك صدور أمر آخر بعزل أحمد باشا الدهر ملى محافظ القاهرة ، لما كان معروفا عنه من مشايعة حركة عرابي ، وتعيين عبدالقادر باشا حلمي مكانه ، وكان مكروها من العرابيين ، وبث محافظ العاصمة الجديد الميون والجواسيس لينقلوا أخبارهم ، ويعرفوا على حركاتهم وسكناتهم

ما أشبه الليلة بالبارحة ، وإن التاريخ يعيد نفسه . ولكن الذين يعتبرون به هم القليلون . وهذا الذي ذكرته من قبل كان من أسباب ثورة أحمد عرابي . وهو ذاته من أسباب ثورة محمد نجيب . الاستبداد بالأمر ! تقييد الحريات ! إبعاد المخلصين وحرمانهم وتقريب الأذنان والمفسدين ! فضائح الاستغلال والارتشاء ! الفطرسية والتشكر لحقوق الشعب ! كل هذه دروس بالغة كان يجب أن تؤتى غارها ، غير أن الناس غافلون عما تقدمه لهم يد الزمان من ألوان المظلة والاعتبار . ولو اعتبروا ، ولو اتفظوا ، لما وقع المتأخرون في مثل ما وقع فيه المتقدمون من عوامل الإفساد والآفة ، فاقبلت عليهم شعوبهم طالبة العدل والإنصاف !

أنا لم أر الأستاذ الرافعي ، ولكن كتابه ينم عنه ، فهو كتاب دقيق واضح عادل . ومعنى هذا أن مؤلف الكتاب يتمتع بصفات نادرة هذه الأيام من العدل والنزاهة والإخلاص . وهي ذات الصفات التي قد تكون وفتت في سبيله ، وغيبته حقه ، فتقدم عليه من هو دونه . وإنه لأثر قبيح من آثار هذا الزمن الذي كنا نعيش فيه — والذي أرجو أن ينتشع — أن تكون

حماكة راتب باشا قائد هذه الحملة، ولكنه مالبث أن رجل عن ذلك قربه إليه وجمله من بطائه . وهذا يدل على شديد ميله إلى تلك الفئة . فكانت لها الحظوة لديه ثم لدى الخديو توفيق »

وإن الحكم النيابي قد عطل في عهدنا هذا . وكان الملك يستبد بالأمر، ولم يكده يدع للوزراء حرية يتصرفون بمقتضاها . حتى كان يولي من يشاء ويبرئ من يشاء، تبعا لأهوائه وزوانه . وهذا مثل ما حدث في عهد الخديو توفيق . فقد كان هو الآخر يستبد بالأمر ويعلى إرادته على وزرائه . وإلا عمل على إغنائهم من الحكم « وبينما كانت الطبقة المثقفة ترتب إعلان الدستور على يد الخديو توفيق ؛ إذابهم يرون شريف باشا يستقيل لممارسة الخديو إياه في تشكيل مجلس النواب ؛ وإصراره على الحكم المطلق . ورأوا الخديو يؤلف وزارة برياسته ، مما ينم عن ميوله الاستبدادية ، ثم يكلف رياض باشا تأليف وزارة من مبادئها الأساسية حكم البلاد حكما مطلقا ، وحرمانها أي نظام دستوري . حتى مجلس شورى النواب القديم على ما كان عليه من ضعف المطلبة ، فقد ظل معطلا سنتين ، طوال عهد وزارة رياض باشا »

وقد كانت الصحافة تلاقى العنت والمشقة . ولا تزال نذكر قانون تقييد الصحافة الذي أطل برأسه من مدة ، غير أن الصحف ومن ورائها أبناء الأمة ، تنادوا حتى وأدوا هذا القانون الرجعي في مهله . والرقيب لا زال صرير قلبه يدوي في آذاننا إلى وقت قريب . وفي عهد توفيق استهدفت الصحف المارضة للاضطهاد في عهد وزارته ، ثم في عهد وزارة رياض ، واستخدمت الحكومة اللامحة القديمة المسماة لأئمة الطبوعات لإبذار الصحف أو تعطيلها . وقد عطلت الحكومة في عهد وزارة توفيق جريدة « مرآة الشرق » مرة لمدة شهر ومرة لمدة خمسة أشهر ، وأنذرت جريدة « التجارة » . وفي عهد وزارة رياض أنذرت الحكومة جريدتي « مصر » و « التجارة » ، وأنذرت جريدة « مصر الفتاة » ، وأنذرت جريدة « الإسكندرية » ثم عطلتها شهرا ، وعطلت جريدة « المحروسة » لمدة عشر يوما ، ومنعت جرائد « النحلة » و « أبو نضارة » و « أبو سفارة » و « القاهرة » و « الشرق » من دخول القطر المصري ولم يكن حظ المخلصين والوطنيين في عهدنا هذا بأحسن منه

مشهود في الحركة المرايية ، أما فرنسا وإنجلترا فكانتا تتدخلان في شؤون مصر الداخلية ، وتعملان على إحباط الحياة النيابية ، وتوسيع شقة الخلاف بين الثائرين والحدوي . وكان لهما ما أرادتا . ثم انسحبت فرنسا من الميدان وخلت إنجلترا وحدها فيه تتصرف بمحض جشعها واستغلالها ومصالحها الخاصة ، دون رعاية لمصالح مصر ، ولا لمصالح العرايين ، ولا لمصالح الحدوي الذي تدعى أنها تحميه وتعمل على استقرار عرشه . وأما السياسة التركية فكانت تنقسم بقصر النظر ، والنزور الأحمق ، والعمل على تسوية سمعة مصر ، وإعلان سيطرتها الوهمية على البلاد . وهذا شبيه بموقفها الآن من الدول العربية عامة ومصر خاصة ، فهو موقف الخنود الذي يترصد بنا الدوائر ، فلا تنصر قضية عربية ، وموقفها من مرور ناقلات البترول بقناة السويس لحساب اليهود معروف ، وكذا موقفها من قضية تونس الديقحة معروف أيضا

والأستاذ الراقعي كتب كتابه بأسلوب المجتهد ، إذ المعروف أن مصادر التاريخ المصري مائة ، وأن الكاتب يجد حرجا كبيرا ، خاصة إذا كان من الوطنيين المخلصين أمثال الأستاذ الراقعي ، فهو يكتب للوطن ، لا لحساب دولة معينة ولا ناحية ما ، بل إرضاء للحقيقة والواقع وتسجيلا لفترة من ماضي هذا الوطن المنكوب ، حتى يفيد من رجو الخير لبلاده ، وحتى يشيح بوجهه من يشاء .

وهو مستغل في أحكامه على أحداث الثورة المرايية ووقائمه . وهو لا يعنى العرايين من اللوم والتعريض . ولا يعنى الحدوي ولا أولياءه من المؤاخذه العنيفة والصفع الدراك . فقد هدم موقف العرايين من وزارة شريف باشا التي جاءت على أثرها وزارة البارودي باختيارهم . وقدمهم على عدم ردمهم قناة السويس اعتمادا على قول فرديناند دي ليسبس . وقدم موقف إنجلترا من وزارة إسماعيل راغب التي جاءت بعد وزارة البارودي . وأغلب الظن أن إنجلترا لم تكن تبغى تأليف وزارة في مصر لكي تبدو البلاد في حالة غير عادية وتتخذ من ذلك ذريعة إلى التدخل في شؤون البلاد . فلما تألفت وزارة إسماعيل راغب قابلتها السياسة الإنجليزية بالجفاء وعدم الثقة والنقض من قدرتها على إعادة الأمن إلى نصابه وأخذت تخلق لها العقبات والمراقيل . وقد موقف تركيا ، فبينما كانت تتظاهر

الصفات النبيلة والكفايات الخلقية النادرة من أسباب تعويق الإنسان عن أن يصل إلى ما يستحق من تقديم وتكريم وأظن أنه كان من الخير أن حرم كتابه «الزعيم أحمد عرابي» النور إثر انتهائه من كتابته ولم يظهر في وقته المحدد . ذلك أن الظرف الذي ظهر فيه فيما بعد هو أنسب الظروف لاستقبال مثل هذا الكتاب . فالكتاب عن جهاد زعيم ثائر — والثورة كانت للظفر بحق الشعب . ونحن الآن في ثورة — وهذه الثورة للظفر بحق الشعب . ويظهر الكتاب الآن ، وبقرائه ، يجب أن تقارن بين الثورتين في دوافعها وأسبابها ، وفي أغراضها ، وفي طبيعتهما . ويجب أن نعرف الدواعي التي أدت إلى إخفاق الثورة الأولى ، لتحاشاها ونحمن أنفسنا وثورتنا ضدها ، ولتلاقم فيما وقع فيه العرايون

يذكر الأستاذ الراقعي بحق أن للثورة المرايية مرحلتين : المرحلة الأولى كانت الثورة فيها مسددة موقفة ، والمرحلة الثانية حادت الثورة فيها عن طريق الإصلاح النشود . والفارق بين المرحلتين هو عمل العرايين على تنحية محمد شريف باشا عن الحكم وتولية البارودي . ومن المقرر أن شريف باشا كان بلا نزاع أقدر من البارودي على حسن تدبير الأمور في تلك الأوقات المصيبة ، إذ له من ماضيه السياسي ، وثقافته ، واختباره ، ما يجعل له كفاية ممتازة في الاضطلاع بالمهام السياسية . أما البارودي فقد كانت نشأته أدبية حربية تحسب ، وهذه مزايا ليست هي المطلوبة لتصرف سياسة مصر ، وخاصة في هذا الظرف المضطرب . زد على ذلك أن رجال الحرب والشعر لا يعالجون الشكل علاجا واقعا ، بل يعالجونه بالحمة القلبية والخيال الذهني ، لا بعقلية الحكيم المتبصر

وهذا درس يجب أن يصنى إليه القارئون بأمرنا الآن ، ويولوه عنايتهم ، ويرعوه حق الرعاية . فإننا الآن عرضة — لا قدر الله — لمثل هذه المزالق التي تكثر فيها الآراء . ولو استمعنا إلى الماضي ، وأحسننا التلقى عنه ، لجنبنا ذلك كثيرا من الصعوبات السياسية الكثيرة ، تلك الصعوبات التي يتعب عنها كل لحظة أعداء الحركة في الداخل والخارج

وقد كان لكل من إنجلترا ، وفرنسا ، وتركيا ، موقف